الاستقرار وتأثيره على السكان في العصر الحجري الحديث في سوريا (دراسة أنثروبولوجية – أثرية)

د. مي الحايك*

المقدمة:

عاش الإنسان في سوريا خلال العصر الحجري القديم[1] على شكل جماعات صغيرة تعتمد في نظامها المعيشي على الصيد والالتقاط، وسكن المغاور والكهوف (كهف الديدرية)، فهو بذلك لم يعرف الاستقرار الدائم، فالصيد كان بحاجة لتنقل دائم خلف الحيوانات وتتبع حركتها المستمرة. وكان يجمع النباتات البرية التي لم يكن بحاجة لبذل مجهود كبير للحصول عليها حيث كانت تنبت برياً في الوسط المحيط، ويستطيع التقاطها باليد المجردة، أو بواسطة أداة بسيطة[2]، (صورة رقم 1).

مع تحسن المناخ في نهاية الألف العاشر قبل الميلاد في سورية، أي فيما يسمى المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (الثقافة الكبارية[3]) بدأ الإنسان الانتقال من

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الآثار.

[1] يمتد من 1 مليون وحتى 40 ألف سنة تقريباً وجدت آثاره في العديد من المواقع السورية (ست مرخو، بيرود، وادي سكفتا، الندوية، كهف الديدرية) التي أعطت دلائل على نشاط الإنسان في تلك المراحل من خلال الأدوات الحجرية المكتشفة في هذه المواقع.

[2] ابو غنيمة، خالد، انماط المعيش ودورها في تكوين التشكيلات الاجتماعية في عصور ما قبل التاريخ، ص 138، المجلة الأردنية للتاريخ والثار، المجلد 4، العدد1، 2010.

[3] سميت كذلك نسبة إلى مغارة الكبارا في فلسطين حيث كشفت آثارها أول مرة في الربع الأول من القرن العشرين والكبارية مرت بطوريين رئيسيين: الأول بدأ بنهاية العصر الحجري القديم الأعلى 17–12 ألف قبل الميلاد، والثاني الكبارية الهندسية بدءاً من 14 الف سنة قبل الميلاد، وقد أتقن سكان هذه الثقافة الأدوات الهندسية التي انتشرت من ميناء العقبة في الجنوب حتى البادية السورية في الشمال.

الكهوف والملاجئ للعيش نصف المستقر[4] في قرى أقامها بالقرب من مصادر المياه ومناطق نمو النباتات البرية كالقمح والشعير، واستمر الإنسان مع ذلك باعتماد النظام الغذائي والمعيشي نفسه القائم على الصيد والتقاط الحبوب والثمار البرية.

مع بداية الثقافة النطوفية[5] استمر الإنسان بنمط المعيشة نفسه بالاعتماد على التقاط النباتات البرية بالدرجة الأولى والصيد في المرتبة الثانية[6]، وهذا أسهم في بداية استقراره في بيوت شيدها في مناطق نمو النباتات، ومناطق جذب الحيوانات، اذ بدأت تتشكل قرى الصيادين الأوائل المكونة من منازل دائرية الشكل، وظهرت حياة اجتماعية وقيم تمثلت بدفن الموتى ووضع قرابين معهم وكذلك الفنون كما في موقع عين الملاحة في فلسطين، استمر هذا الاستقرار القائم على الصيد والالتقاط حتى بداية الألف العاشر قبل الميلاد أي بداية العصر الحجري الحديث[7] 9000-5000 قبل الميلاد، ويطلق على هذا العصر اسم الثورة النيوليتية"NeolithicRevolution" وهو مصطلح قصد به بلوغ المجتمع أوج تطوره الشامل في المناحي جميعها في ذلك الحين، مع التحول الكبير لحياة الإنسان في سورية (حيث يعتقد أن سكان المريبط[8] على الفرات كانوا أول من مارس

[4] Akkermans, A. A. P. The Archeology of Syria from Complex Hunter, Gatherers to Early Urban Societies, 16000-300BC, Cambridge, P37, 2003.

[5] ظهرت الحضارة أو الثقافة النطوفية في النصف الثاني من العصر الحجري الوسيط (12-10 ألف سنة) وسميت نسبة إلى وادي النطوف (مغارة شقبة) في فلسطين، وقد كانوا متطورين عن أسلافهم الكباريين، امتدت من وادي النيل في الغرب حتى الفرات في الشرق، فوجدت الأدوات الحجرية النطوفية في سورية بوادي سكفتا في يبرود، والكوم في البادية، ونهر الحمر على الفرات قرب دير الزور، والطيبة في درعا وجيرود قرب دمشق.

[6] محيسن، سلطان: عصور ما قبل التاريخ، منشورات جامعة دمشق كلية الآداب، 2008، الطبعة الخامسة، ص 160.

[7] امتد العصر الحجري الحديث في بلاد الشام وبلاد الرافدين، وقد قسم إلى : العصر الحجري ما قبل الفخار"أ" 9300- 8500 والعصر الحجري ما قبل الفخار "ب" 8500-7500 والعصر الحجري الحديث الفخاري 7500-5000 قبل الميلاد.

[8]* يقع تل المريبط على الضفة اليسرى لنهر الفرات ويبعد نحو 80 كم جنوب شرق حلب، تبلغ مساحته 3 هكتار، وارتفاعه 12 م، كان من المواقع التي تم التنقيب عنها ضمن حملة إنقاذ آثار حوض الفرات، وبدأت التنقيب بعثة إمريكية بين أعوام 1964-1965، ومن ثم بعثة فرنسية بإدارة جاك كوفان بين أعوام 1971-1974، أرخ الموقع بين 14000-8000 قبل الميلاد.

الزراعة في بداية الألف الثامن قبل الميلاد، كما أشارت نتائج الحفريات الأثرية في موقع جرف الأحمر[9] في سورية إلى أنّ سكانه قد عرفوا الزراعة منذ الألف التاسع قبل الميلاد[10]) (صورة رقم 2) إذ تمكن الإنسان من السيطرة على مصادر العيش من خلال معرفته للزراعة وتدجين الحيوانات التي جعلته أول مرة منتجاً للطعام وليس مجرد مستهلك له. ومع معرفة الإنسان للزراعة والتدجين تغير نمط حياته بشكل كامل فأنشأ القرى المستقرة الدائمة بالقرب من الينابيع والأنهار والأراضي التي استصلحها للزراعة، أو ماترتب عليه من تغيير نمط حياته من بيوت صغيرة دائرية الشكل الى بيوت مستطيلة متعددة الغرف تضمنت مستودعات لتخزين الفائض من الحبوب فضلاً عن حظائر تربية الحيوانات، كما ظهرت الفنون والتي تضمنت تماثيل إنسانية وحيوانية، وظهرت معتقدات دينية مختلفة، كعبادة الآلهة الأم الممثلة لتجدد الحياة واستمراريتها ومن ثمّ استمرارية الزراعة وعبادة الأجداد التي تمثلت بالجماجم المجصصة التي عثر عليها بالعديد من المواقع السورية[11] منها(تل الرماد، تل أسود). كما عرف صناعة الفخار(صورة رقم 3).

وقد كان لهذا التغير والتطور في نمط الحياة والاستقرار تأثيره في السكان من حيث عددهم وطبيعة الغذاء وتأثيره في الصحة وكذلك تغير طبيعة العمل والنشاط سواءً ممارسة الزراعة وما يترتب عليها من أعمال أخرى كالحصاد وصناعة السلال للتخزين، هذه الأنشطة كلّها كان لها تأثير واضح في السكان، فحالة الصحة والمرض لأي مجتمع تتأثر بقوة بأسلوب الحياة الذي يعيشه ويمارسه أفراده، فهي نتاج حالة ديناميكية مستمرة

[9] يقع جرف الأحمر على الضفة اليسرى لنهر الفرات على بعد 60 كم جنوب الحدود السورية التركية، وقد أنجزت عدة حملات تنقيبية لإنقاذ الموقع في منطقة الفرات الأوسط منذ عام 1991م من قبل بعثة مشتركة سورية – فرنسية تبيّن أن آثار جرف الأحمر تعود إلى منتصف الألف العاشر قبل الميلاد، أي إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار"أ".

[10] جاموس، بسام، جرف الأحمر قرية من الألف العاشر قبل الميلاد رموز وإشارات تجريدية، ص15، دمشق 2005.

[11] كوفان، جاك، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن، ص100، دار دمشق للطباعة والنشر،1988.

تتضمن علاقات متبادلة معقّدة جداً التعقيد ليس فقط بين أعضاء المجتمع الواحد بل أيضاً بينهم وبين مجموعة كبيرة من العوامل الطبيعية والبيولوجية والثقافية، ويتخذ علماء الأنثروبولوجية من الوضع الصحي والمرضي للمجتمع مؤشراً حساساً لدرجة تكيف السكان لعناصر النظام البيئي الذي يعيشون فيه كلّه ،وهذا ما ينطبق على مدة الدراسة فالعظام تكشف عن تفصيلات تتعلق بحياة مجموعات العصر الحجري الحديث التي تحول أفرادها من حياة تعتمد على الصيد والقطف إلى حياة تعتمد على الزراعة.

إنّ آثار معاناة الحياة –بعضها نتيجة للأمراض وبعضها الآخر نتيجة للأعمال اليومية– تترك بصماتها على عظام الهياكل والأسنان، وبالفعل فقد دلت الدراسات الأنثروبولوجية على كثير من المعلومات التي لا يمكن اكتشافها بغير هذه الطريقة، ومن النشاطات إلي أثرت في السكان: الزراعة وجمع الطعام، وتحضير الطعام، وطهي الطعام، والاستقرار وتأثيره في الأطفال، حماية الملكية، والتدجين، والنسيج وصناعة السلال هذه النشاطات قد ظهرت آثارها في بعض الهياكل العظمية التي كشفت في العديد من المواقع كتل أبي هريرة[12]، وتل القرامل[13]، وتل الرماد، وتل الكرخ وعين الكرخ[14]، وتل بقرص[15]، وتل الصبي أبيض[16]وفيما يأتي عرض لبعض هذه النشاطات وآثارها في السكان في مواقع العصر الحجري الحديث في سوريا.

[12] يقع تل أبي هريرة على الضفة الغربية لنهر الفرات شمالي سورية، يشغل مساحة 11,5 هكتاراً، بدأت التنقيبات في التل من قبل الحكومة السورية، وجامعة أكسفورد خلال عامي 1972–1973 ،وذلك ضمن خطة لإنقاذ الموقع عند بناء سد الفرات، وقد تضمن التل سويات من العصر الحجري ما قبل الفخار" أ،ب" والعصر الحجري الفخاري.

*[13] يقع تل القرمالي بالقرب من مدينة حلب، ويؤرخ ب 10 ألف سنة قبل الميلاد.

*[14] يقع تل الكرخ في سهل الروج في محافظة إدلب ويتألف من ثلاثة مواقع متجاورة أرخت بين نهاية العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار وبداية العصر الحجري الحديث الفخاري.

*[15] يقع تل بقرص على الضفة اليسرى لنهر الفرات إلى الجنوب الشرقي من دير الزور، سكن الموقع منذ بداية الألف السابع وحتى الألف السادس قبل الميلاد أي المرحلة الممتدة بين 6400–5900 قبل الميلاد.

*[16] يقع تل الصبي أبيض على الضفة اليسرى لنهر البليخ ويتألف من أربع تلال صغيرة، ونقّب فيه منذ ثمانينيات القرن الماضي من قبل بعثة هولندية ويؤرخ الموقع 7000–5500 قبل الميلاد.

أولاً- الزراعة وجمع الطعام:

كانت الزراعة بحاجة للعمل في اليوم كلّه على مدار السنة تقريباً بدءاً من تجهيز الحقل، ونثر البذور، والحصاد الذي كان بحاجة لجهد إضافي على مدى أسبوعين أو ثلاثة لجمع المحصول وتقليل الخسارة، ففي هذا الوقت أفراد القرية أو المجتمع جميعهم يشاركون بالعمل رجالاً ونساءً وشباباً وكباراً في السن لجمع الحبوب، إمّا عن طريق قلعها باليد، أو بواسطة المناجل، وهذا العمل يؤثر في الهيكل العظمي تأثيراً مباشراً (وذلك من خلال الإصابة بالتهاب المفاصل والفقرات التي يمكن ملاحظتها مباشرة[17]). في موقع أبي هريرة (في مرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار) لوحظ على العظام علامات تدلّ على الإجهاد الإضافي والمفرط الناجم عن حمل الأثقال التي هي في معظمها حمل الطرائد والحبوب[18] (صورة رقم 4). وقد كانت هذه العلامات بأوضح صورها لدى الشباب، فقد دلت دراسة هذه الهياكل على وجود تغير في الفقرات العليا، فمن المحتمل أنَّ الأثقال كانت تحمل على الرأس، وذلك لأن فقرات الرقبة تبدو متسعة، كما لوحظ وجود تكلس في فقرات الرقبة[19]. في تل القرامل[20]مرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "أ" ظهر مرض التهاب المفاصل بين الرجال، كما في الدفنة رقم 07-8، وهي دفنة تعود لشاب، وهذه الإصابات ناتجة عن الأعمال اليدوية، كحراثة الحقل، أو حصاد الحبوب فضلاً عن حمل الأوزان الثقيلة على الرأس، وأوضحت دراسة الهياكل العظمية في تل الكرخ وجود عدد كبير من السكان مصابين بالتهاب

*[17] تعدّ أمراض المفاصل من أكثر الأمراض التي تصيب الهيكل العظمي، وهي تتميز بتدميرها للغضاريف في المفاصل، وللبنية في نسيج العظم وتعد من أكثر الأمراض التي يمكن تحديدها من قبل باحثي الأنثروبولوجية.

[18] Molleson.T., The Eloquent Bones of Abu Hureyra ,Scientific American, Vol 271\2,P.72, 1994.

[19] Molleson , Amethod for the of Activity Related Skeletal Morphologies , Bioarchaeology of the Near East, P.33,2007.

[20] Kanjou, Youssef., Study of Neolithic Human Graves from Tell Qaramel in North Syria, International.

المفاصل خاصة في الساعد والركبة[21]. وهي أمراض متأصلة ومستمرة بسبب الجهد والعمل في الحقل منذ العصر الحجري الحديث حتى يومنا هذا.

ثانياً- طحن الحبوب:

طحن الإنسان الحبوب وطهاها قبل معرفة طرائق استنباتها، إذ يمكن القول: أنّ تحضير الطعام كان يحتّم أولاً تقشير الحبوب كل يوم، وذلك لتعذر حفظها بعد نزع القشور عنها، ويبدو أنّ عملية نزع القشور باستخدام الهاون والمدقة وعملية الطحن التي تليها باستخدام المجرشة كانتا تستغرقان ساعات طويلة، وتوحي شكل المجاريش بأنّها كانت توضع على الأرض مباشرة، وهكذا كان على المرأة أن تركع على ركبتيها للقيام بعملية الجرش، وذلك على الشكل الآتي: كانت المرأة تدفع وهي بوضعية الركوع على ركبتيها وأصابع قدميها منثنية إلى الأمام (صورة رقم 5)، حجر الطحن نحو الناحية البعيدة من المجرشة منهية بذلك شوطاً من الطحن، وجسمها الأعلى يوازي الأرض تقريباً، وعند وصولها إلى النهاية البعيدة من المجرشة كان عليها أن تعود إلى وضعية الانطلاق، وبذلك يدور الجسم في أثناء عملية الطحن متناوباً حول مفاصل الركبتين والوركين، وهذه العملية كان لها تأثير في الهياكل العظمية فقد دلت الدراسات الأنثروبولوجية للهياكل العظمية للنساء في تل أبي هريرة[22] عن تشوه بأصابع الأقدام، وذلك لأنّ أصابع القدم تنحني إلى الأمام لتوفر القوة التي تؤمن معظمها إبهام القدم (صورة 6)، ويبدو أن المفاصل المشطية الأولى في أصابع الأقدام غالباً ما كانت مصابة، وهذه الإصابات هي نتيجة بذل جهد مستمر والعمل ساعات طويلة. وفي تل الكرخ عثر على العديد من الهياكل العظمية لنساء تظهر عليهن إصابات المفاصل، ما يؤكد أنّ هذه الأمراض ناتجة عن العمل وليس بسبب شيء آخر هو صغر عمر النساء

[21] Tsuneki,A, Third Preliminary Report of the Excavations at Tell el-Kerkh Northwest Syria ,Bulletion of the Ancient Orient Museum ,Vol 20, P.12, 1999.

[22] Moore, A per- Neolithic Farmers Village on the Euphrates, Scientific American 30,1979.

اللواتي درست هياكلهن. ومن خلال الدراسات الأثنوغرافية التي أجراها بعض الرحالة في الواحات الصحراوية تبيّن أنّ النساء يقضين معظم أوقاتهن في طحن الحبوب باستخدام مطاحنهن اليدوية، وقد يستغرق إنتاج كمية كافية من الدقيق لوجبة غذائية واحدة ساعات عدّة من العمل (صورة رقم 7)، وهذ يشابه ما كان عليه حال النسوة في العصر الحجري الحديث في سوريا.

ثالثاً – طهي الطعام:

تضمّن الغذاء في العصر الحجري الحديث نسبة عالية من الحصى أو الحبيبات الرملية الناتجة عن استخدام المجاريش الحجرية، مّما يؤدي إلى اختلاط بعض الجزيئات الصغيرة من الحجارة مع الدقيق المستخدم في صنع الخب، هذا فضلاً عن لطرائق إعداد الطعام الذي لم يكن ربما مطهواً بطريقة جيدة، والنظام الغذائي الغني بالكربوهيدرات الذي يتحول إلى سك، بالإضافة لتناول الفواكه والنباتات الخضراء التي تضم أليافاً قاسيةً، وهذا كلّه كان له تأثير شديد جداً في أسنان الناس الذين كانوا يفقدون أسنانهم في أعمار مبكرة في العصر الحجري الحدي. فقد عثر في تل الرماد على تآكل ونخر في الأسنان ناتج عن تناول طعام مليء بالرمال[30]، وأيضاً أظهرت أسنان المجموعات السكانية في تل أبي هريرة تآكلاً شديداً في الأسنان[31]، وفي تل القرامل[32]أظهرت الدراسات الأنثروبولوجية وجود حالات تآكل ونخر والتهابات في الأسنان واللثة. وفي المرحلة المتأخرة من العصر الحجري الحديث أحدثت تقنية صناعة الفخار تغيراً جذرياً في المجتمع، فاستخدام الأوعية الفخارية لنقع الحبوب وطهيها جعل الطعام المصنوع من الحبوب ليناً وقلل من تآكل(تكسير) الأسنان (صورة رقم 8)، وكان له تأثيرٌ كبيرٌ في بنية سكان المجتمع، وما يوضح ذلك العثور على كسر غير مرمم في

[30] دينزفيرمباخ، ترجم رباح نفاخ، دراسة أنثروبولوجية للعظام البشرية في تل الرماد، مجلة الحوليات الأثرية السورية، عدد29، 1969، ج 1-2، ص 149.

[31] Molleson, Ibid, P79

[32] Kanjou, Youssef, Ibid, P.28.

فك امرأة في موقع أبي هريرة، ومن المؤكد أنّها لم تكن قادرة على البقاء على قيد الحياة لو لم يتيسر لها وجود الطعام المطهو بشكل ثريد. ومع ذلك وعلى الرغم من التغير في تحضير الطعام إلاّ أنّ الطعام المطبوخ يلتصق بالأسنان ويهيء وسط ملائم لنمو البكتريا التي تسبب نخر الأسنان، وهذا ما عثر عليه في تل الكرخ.[33] فقد أظهرت الدراسة الأنثروبولوجية أنّ عدداً كبيراً من سكان الموقع ومن الجنسين كانوا يعانون من تسوس الأسنان، والخراج، وتآكل اللثة بسبب الالتهابات[34]، كما أظهرت الهياكل العظمية لكلا الجنسين التي عثر عليها في تل الصبي أبيض في السوية المؤرخة بالعصر الحجري الحديث وجود عدد كبير من حالات تسوس الأسنان فضلاً عن ظهور تهشم وتكسر في عدد كبير من الأضراس [35]ناتجة عن الغذاء المليء بالحصى على الرغم من معرفة الفخار في هذه القرية.

رابعاً- صناعة السلال والنسيج:

نتج عن الزراعة معرفة السكان صناعة السلال لنقل الحبوب من الحقول ولتخزينها، وكذلك تمكن السكان من نسج الحصر سواءً من القصب الذي كان متوافراً في تلك المرحلة على ضفاف شواطىء الأنهار كنهري دجلة والفرات، أو بالقرب من البحيرات والبرك المائية كالعتيبة في حوضة دمشق، وتمكن الآثاريون من الاستدلال عليها من بقايا آثارها ضمن المواقع الآثرية أو طبعاتها ضمن المدافن كما في مواقع (أبو هريرة، وتل حالولة، وتل بقرص) وقد استخدم السكان الأسنان كيد ثالثة في أثناء تصنيع السلال (صورة رقم 9)، فلصناعة سلة لابدّ من تحريك ثلاث قصبات في وقت واحد،

[33]Tsunek, Aglimpse of Human Life from the Neolithic Cemetery at tell el-Kerhk, Northwest Syria, DocumentaPraehistorico,XXXVIII, 2011,p.40.

[34]اذ انّ التهاب اللثة يمتد إلى عظم الفك نفسه، ويظهر آثار مرض التهاب اللثة في بقايا الهيكل العظمي على شكل تراجع أو تآكل العظم المحيط بالأسنان مّما يؤدي الى ظهور جذور الأسنان ،ثم تساقطها بعد ذلك.

[35]Verhoeven, M, and Peter Kranendonk " Tell SabiAbyad the Late Neolithic Settlement" the Excavtion: Stratigraphy and Architecture,1, P117. 2000.

وذلك لأنّ اليدين تكونان مشغولتين بإمساك العوارض الأولى من السلة، وتستخدم الأسنان في توجيه القصبات المجدولة (وبالمقارنة الآثنوغرافية يمكن ملاحظة حتى يومنا هذا من يقوم بصنع السلال والكراسي الخيزران يدوياً يمسك احدى القشات بفمه) والنسج بهذه الطريقة يكون أخاديد على سطح الأسنان الأمامية مباشرة ففي موقع أبي هريرة عثر على عدد من الهياكل العظمية لأشخاص بالغين، ويظهر أعلى السن ما يشبه الفجوة الطويلة ناتجة عن احتكاك القصب مع الأسنان، كما وجدت الآثار نفسها على أسنان أطفال صغار تراوح أعمارهم بين 5-6 سنوات، فربما كان المهنة تورّث ضمن العائلة، وكان الأطفال يتعلمونها منذ الصغ، كما الأدلة على النسج وصناعة السلال نادرة بين العظام، وهذا يؤكد أنّ هذه المهن كانت محصورة في مجموعة صغيرة من السكان، وهذا ما يوحي بوجود منطقة حرفية، وقد يمثل مثل هذا التخصص حصيلة طبيعية لأي تقسيم في المهمات[36]. هذا وتتشابه أسنان صانعي السلال في موقع أي هريرة مع سكان وادي حلفا في مصر(صورة لأسنان الهياكل، ولكيفية وضع القصب في الفم).

خامساً- تدجين الحيوانات:

كما تربية الماشية كانت من الأسباب الرئيسة لانتشار الأمراض مثل بكتريا السل، فمثلاً دفنات العصر الحجري الحديث في موقع عين غزال ظهرت عليها آثار مرض السل[37] في ثلاث حالات، والتي كانت نتيجة الاحتكاك مع الحيوانات المصابة، أو من خلال استهلاك اللحوم النيئة والحليب، وكذلك هناك العديد من الديدان الطفيلية المنتشرة بين الإنسان والحيوانات. فالبراغيث على سبيل المثال تتطفّل على السكان المقيمين مع الحيوانات، وذلك لأنّ يرقاته تعيش ضمن المنازل والاسطبلات أكثر مّما

[36]Molleson,T, The Third Hand: Neolithic Basket Makers of Abu Hureyra, Proceedings of the 13thInternational Symposium on Dental Morphology, P.233, 2010.

[37] يعدّ مرض السل من الامراض التي تترك آثارها على الهيكل العظمي بشكل عام وعلى الفقرات القطنية بشكل خاص ويعدّ السل من اكثر الأمراض التي أصيب بها الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث.

تعيش في الجسد، ومن أبسط طرق التخلص من هذا التهديد هو ترك مكان الإصابة أو المكان الموبوء، وهذا يعدّ حلاً صعباً وقاسياً في المجتمعات الزراعية.

سادساً- الاستقرار وتأثيره في الأطفال:

على نقيض الاعتقاد الشائع فإن الزراعة لم تحدث عدالة اجتماعية في مرحلة ما قبل التاريخ، ولم تعط قيماً أسمى من مرحلة الصيد والالتقاط. فبالنسبة إلى المزارعين الأوائل كانت أوقات الراحة أقل بكثير من أوقات العمل مقارنة بالمجتمعات المتنقلة، ومع زيادة محصول الحبوب، أيضاً حصل نقص في التوازن ونقص في تنوع الغذاء، وبشكل عام نقص في الصحة، وأدّى سوء التغذية والعمل الشاق إلى انخفاض متوسط الأعمار. وراوح متوسط الأعمار في العصر الحجري الحديث بين 25-30 سنة.

أمّا بالنسبة إلى الأطفال فكان للاستقرار تأثير في زيادة الكثافة السكانية، وذلك بإنقاص المدة الفاصلة بين الولادات مّما أدّى إلى الفطام المبكر للأطفال، كما استبدل الطعام المطبوخ الثريد في تغذية الأطفال بدلاً عن لبن الأمهات، وهذا كان له تأثير سلبي في الأطفال فأصبحوا معرضين لخطر متزايد للموت بسبب الأمراض، كما أنّ زيادة السكان أعطى فرصة كبرى لانتقال الأمراض من فرد إلى آخر، فضلاً عن سوء التغذية. وكانت نسبة 50-60% من الأطفال فقط تصل إلى سن البلوغ، وقد عثر على عدد كبير من دفنات الأطفال خلال العصر الحجري الحديث في سورية التي دلت الدراسة الأنثروبولوجية على أنّ نسبة كبيرة من الوفيات كانت ناتجة عن سوء التغذية، ففي تل حالولة في مرحلة ما قبل الفخار"ب" كانت نسبة كبيرة من الدفنات لأطفال راوحت أعمارهم بين 2-4 سنوات، وتظهر على هياكلهم أمراض سوء التغذية وفقر الدم[38] وهذه الأعراض ظهرت على هياكل الأشخاص البالغين أيضاً، وبشكل خاص النساء، وفي تل بقرص عثر على هياكل لأطفال تظهر عليها آثار لسوء التغذية منها

[38]Molist, M., Houses for the Living and for the Dead? The Case of Tall Halula, Syria, III (Madrid,2008), P552.

دفنة رقم TC التي ضمت هيكلاً لطفل مصاب بفقر الدم، ومن موقع عين الكرخ في سورية عثر على هياكل تظهر عليها آثار نقص في نمو العظام التي سببها نقص التغذية. كما عثر في تل أبي هريرة على دفنات لأطفال يظهر في محجر العين ثخانة وتنقر،[39]وهو ناتج عن سوء التغذية الذي غالباً ما أصاب الأطفال في عصور ما قبل التاريخ في مرحلة الفطام ،وانتقال الأطفال من لبن الأم إلى طعام الجماعة.

سابعاً – تغيير البيئة بما يتناسب مع الزراعة

كما أنّ ارتفاع الحرارة والرطوبة المترافقة مع التغيرات الساحلية (بسبب ارتفاع مستوى مياه البحر) أدّت إلى تشكّل المستنقعات والبحيرات والسبخات مع جريان قليل للمياه (مياه راكدة)، وذلك كله شكل بيئة ملائمة للملاريا، والبلهارسيا، وفقر الدم الحاد، وهذه الأوبئة انتشرت في منطقة الشرق الأدنى والبحر المتوسط في بداية العصر الحجري الحديث، وقضت على أعداد كبيرة من السكان مّما شكل ضغطاً كبيراً على المجتمعات الزراعية الصغيرة. بشكل عام لم تتوافر في هذه القرى البيئة الصحية الجيدة، فضلاً عن وجود كميات من النفايات الناتجة عن المواد العضوية(النباتات)، ومخلفات الإنسان، والمخلفات الحيوانية، وفضلات أخرى توجد حول المنازل، وقد عثر عليها في أثناء عملية التنقيب، وفي هذه الحالة كانت المجتمعات المتنقلة(الرحالة) تترك المكان، بينما في القرى وفي المجتمعات المستقرة فيحدث أن تتكدس وتتراكم فيها مخلفات الإنسان والحيوان معاً، والنفايات تجذب الحيوانات الطفيلية التي تحمل الأمراض معها. كما أنّ الحشرات كالذباب والبعوض يقف على النفايات، وتحمل معها التهابات وأمراضاً مختلفة، وكذلك الجرذان تنقل حمة نزيفية. وكذلك الكلاب البرية وغيرها من الحيوانات اللاحمة تنقل مرض الكلاب(السعار)، وكذلك القطط البرية تنقل الأمراض.

أدّى تنظيف الأراضي حول البرك أو الينابيع القليلة الجريان من النباتات ومن ثم زراعتها في أوقات الجفاف خاصة في مناطق الزراعة البعلية ادى إلى انتشار أمراض

[39] مرض الحجاج الغربالي: هو مرض ناتج عن سوء التغذية وتظهر آثاره في محجر العين بشكل ثقوب صغيرة.

مثل الكزاز(تيتانيوس) والملاريا، والبلهارسيا. ومن الأخطار الأخرى انتشار الطفيلات نتيجة تحسن المناخ في بداية الهلوسون. إنّ دليل وجود هذه الأمراض في مجتمعات ما قبل التاريخ ضئيلة، وذلك بسبب ندرة الهياكل العظمية المحفوظة، وعوضاً عن ذلك فإنّ معظم معلوماتنا تم أخذها من المومياءات المصرية أو من كتابات الألف الثالث قبل الميلاد وما بعده، ومع ذلك فإن انتشار إصابات مبكرة وتوثيق العديد من الأمراض أمر غير مستبعد، إذ يعتقد المكتشفون في تل الصبي أبيض أنّ بعض الأمراض التي حدّدت في الهياكل العظمية ناتجة عن وجود طفيليات تترافق مع الأماكن الملوثة.

ثامناً– الحفاظ على الملكية:

كان هناك تنافس بين المجموعات إذ ظهرت حدود للقرى ونشأت الملكية الخاصة، وربما كان الوصول أو السماح بالدخول إلى المنطقة المحددة محرماً على مجموعات أخرى من المجتمع المحلي، وربما كانت هذه هي أسباب الاختلاف والقتال فيما بينهم. ومع أن الأدلة على العنف الجسدي في العصر الحجري الحديث قليلة ولكنها موجودة، ومن المعلومات المتاحة هيكل عظمي لشاب بالغ عثر عليه في موقع أبي هريرة، وقد غرس رأس سهم في تجويف الصدر أسفل الأضلاع مع انحدار واضح للأسفل نحو الحوض، ووجود السهم في الصدر دليل واضح أن الموت كان نتيجة العنف والقتل المتعمد. ومن تل القرامل جاءت أدلة تبيّن وجود حالات عنف في الموقع، ففي (قبر رقم 2) تظهر آثار تقطيع واضحة على الفقرات الأولى والثانية، ومن دفنة أخرى يظهر على الفك السفلي آثار خطوط متوازية طولية متجهة من الأعلى إلى الأسفل مّما يدّل على عملية قطع للرأس متعمد، والهيكل يعود لشاب بالغ[40].

أيضاً من أدلة الصراع أو الحرب هي ظاهرة حرق المباني كما في بقرص، إذ عثر في داخل بناء على بقايا هياكل محروقة، وضمت على الأقل خمسة هياكل عظمية

[40]Moore, A.M,T., The Neolithic of the Levent, Ibid,p:288.

لأطفال وأشخاص بالغين (بينهم سيدة حامل، بلغت من العمر تقريباً 25سنة)[41]، وفي تل الكرخ عثر على عدد كبير من الهياكل يظهر عليها آثار العنف الذي كان سبباً مباشراً للوفاة، منها هيكل رقم (1054)، وهو لشاب بالغ، فقد وجدت أصبع القدم الكبرى اليسرى بالقرب من الكتف، كما كسرت عظم الفخذ اليسرى، وهيكل آخر لشخص يبلغ بين 35-40 سنة عند الوفاة، حيث وجدت فجوة في العظم الصدغي الأيسر، وأخرى في الفك السفلي، ولا بدّ أن كسر الجمجمة كان السبب المباشرللوفاة[42]، كما عثر في تل الصبي أبيض على هيكل عظمي تظهر عليه كسور في الجمجمة، ويعتقد المكتشفون أنّ سبب الكسر العنف وليس نتيجة ممارسات طقسية، وعلى الأرجح عملية قتل[43]. وبشكل عام كان التوتر والمنافسة محدوداً بين المجموعات السكانية خلال العصر الحجري الحديث. لأنّ الحدود بين المجموعات قلّلت الصراع على الاقتصاد مع وجود كثير من الضوابط والقيود الاجتماعية (من خلال تبادل الزيجات، وممارسة طقوس دينية وشعائرية مشتركة).

الخاتمة:

إن الحالة الصحية والمرضية لأي مجتمع إنساني ليست وليدة المصادفة، وإنّما هي (دون شك) محصلة التعبير عن مجموع الضغوط البيئية والممارسات الثقافية والاقتصادية التي يتعرض لها المجتمع، فضلاً عن خصائص السكان البيولوجية وميراثهم الجيني. لذلك تمثّل حالة الصحة والمرض للمجتمعات الإنسانية القديمة أحد أهم جوانب التاريخ البيولوجي الثقافي للإنسان التي يسعى علماء الآثار والأنثروبولوجية عموماً إلى دراستها وتعرّفها عليها لما لها من أهمية بالغة في تكوين جزء أساسي من فهمنا لتاريخ

[41]فان لون، لوريس، ط نتائج التنقيب في تل بقرص"، الحوليات الأثرية السورية، ترجمة قاسم طوير، (34) 1983، ص 263.

[42]Tsuneki, A newly Discovered Neolithic Cemetery at Tell el-Kerkh, 2010,Bulletin of the Acient Orient Museum, Vol 20, P31.

[43]Akkermans PMMG., A late Neolithic and early Halaf Village at SabiAbyad northern Syria, Paleorient 13/1,Lyon,P24,2000.

تطور الإنسان البيولوجي والثقافي وقدرته على التكيف، وهذا ما لحظ من دراسة الهياكل العظمية لبعض مواقع العصر الحجري الحديث في سوريا التي من خلالها تمكنا من معرفة كيفية تكيف الإنسان مع البيئة، وللجهد الذي ظهر بوضوح على عظامه ليتمكن من تسخير الطبيعة وتطويعها من خلال الزراعة بما يتناسب مع حاجاته فضلاً عمّا ولدته ربما الملكية من عنف في محاولة المحافظة على الأراضي، وعليه يمكن القول: إن مرحلة العصر الحجري الحديث من المراحل الصعبة في حياة السكان، وقد عرفوا كيف يتعاملون بنجاح مع أربعة أشياء: الموت، والمجاعة، والأمراض، وأذى المجموعات الأخرى.

الصور

صورة رقم (1) توضح نشاط الإنسان من الصيد والالتقاط في العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط

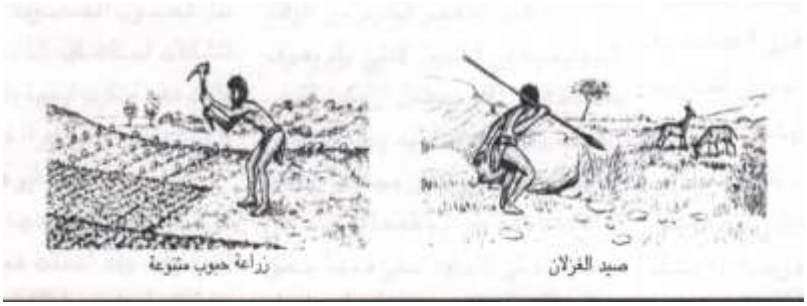

صورة رقم 2 توضّح تطور النشاط البشري في بداية العصر الحجري الحديث (الصيد والزراعة)

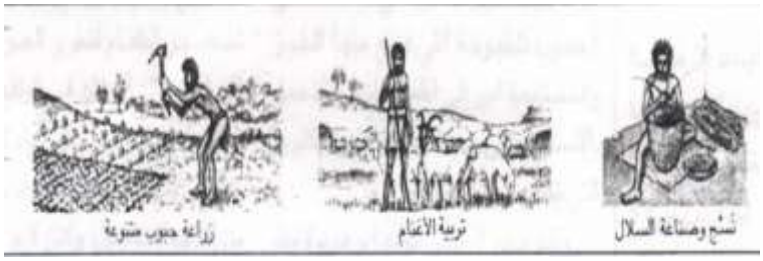

صورة رقم 3 تظهر نشاط الإنسان في العصر الحجري الحديث (رعي أغنام، زراعة، صناعة السلال)

صورة رقم 4 تبيّن حمل الحبوب على الرأس وتأثيرها في عظام الرقبة

صورة رقم 5 تبيّن عملية طحن الحبوب وتأثيرها في عظام العمود الفقري، والركبة، والقدم.

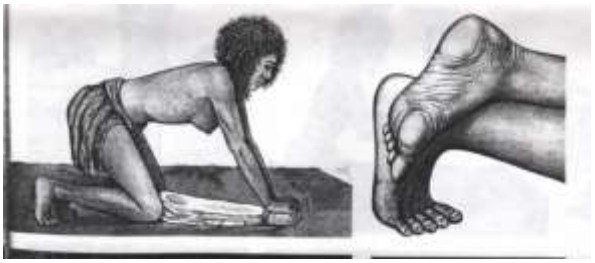

صورة رقم 6 تبيّن وضعية الأقدام في أثناء عملية الطحن

صورة رقم 7 تبيّن عملية دق الحبوب باستخدام الهاون

صورة رقم 8 تخيّل إنسان عصور ما قبل التاريخ يتناول طعام القاسي الذي كان يؤدي إلى تكسر الأسنان.

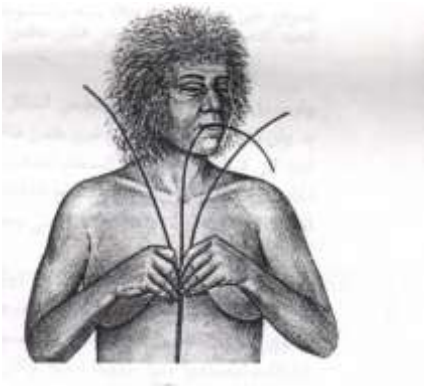

صورة رقم 9 تبيّن استخدام الأسنان كيد ثالثة في أثناء نسج القصب.

الصورة رقم 10 تظهر الأخاديد العميقة الناتجة عن سحب القصب خلال الأسنان في أثناء صناعة السلال في موقع أبي هريرة

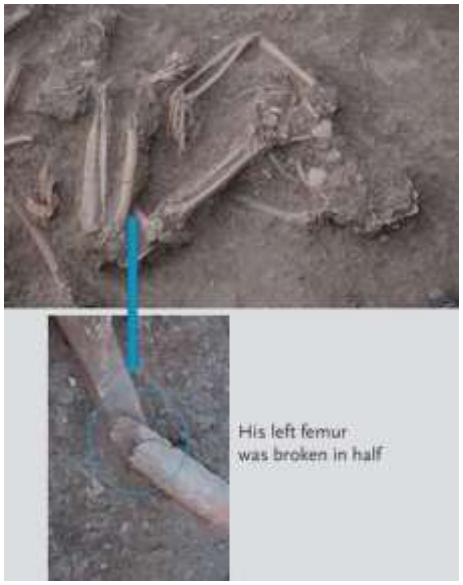

صور رقم 11 تبيّن الكسور الناتجة عن العنف في موقع تل الكرخ.

صورة رقم 12 تبيّن كسور الجمجمة في موقع تل الكرخ.

المراجع العربية

1. أبو غنيمة، خالد.2010، أنماط المعيشة ودورها في تكوين التشكيلات الاجتماعية في عصور ما قبل التاريخ، ص 138، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 4، العدد1.

2. جاموس، بسام.2005، جرف الأحمر قرية من الألف العاشر قبل الميلاد رموز وإشارات تجريدية، ص 15، دمشق.[1]

3. دينزفيرمباخ، ترجمة رباح نفاخ، دراسة أنثروبولوجية للعظام البشرية في تل الرماد، مجلة الحوليات الآثرية السوري، عدد 1969، ج 1-2، ص 149.

4. فان لون، موريس، "نتائج التنقيب في تل بقرص"، الحوليات الأثرية السورية، ت: قاسم طوير، (34) 1983، ص 263.[1]

5. كوفان، جاك.1988، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة سلطان محيسن، ص 100، دار دمشق للطباعة والنشر.

6. محيسن، سلطان.2008، عصور ما قبل التاريخ، منشورات جامعة دمشق كلية الآداب، الطبعة الخامسة، ص160.

المراجع الأجنبية

1. Akkermans, A. A. P. 2003. The Archeology of Syria From Complex Hunter. Gatherers to Early Urban Societies Ca .16000-300BC, Cambridge,

2. Akkermans PMMG., 2000. A late Neolithic and early Halaf Village at SabiAbyad northern Syria, Paleorient 13/1, Lyon, P24,.

3. Kanjou, Youssef., Study of Neolithic Human Graves from Tell Qaramel in North Syria, International

4. Molleson. T., 1994. The Eloquent Bones of Abu Hureyra, Scientific American Vol 271(2), P.72..

5. Molleson, T 2007. A method for the of Activity Related Skeletal morphologies, Bioarchaeology of the Near East , P33,.

6. Molleson, T, The Third Hand: Neolithic Basket Makers of Abu Hureyra , Proceedings of the 13thInternational Symposium on Dental Morphology, p.233.
7. Molist, M., 2008. Houses for the Living and for the Dead? The Case of Tell Halula, Syria, III(Madrid ,2008),P:552.
8. Moore, A 1979. Pre- Neolithic Farmers Village on the Euphrates, Scientific American, p 30,.
9. [1]Moore, A.M, T., The Neolithic of the Levant.
10. Tsuneki,A, 1999.Third Preliminary Report of the Excavations at Tell el-Kerkh Northwest Syria, Bulletin of the Ancient Orient Museum ,Vol 20, P.12,.
11. Tsuneki, 2011.Aglimpse of Human Life from the Neolithic cemetery at tell el-Kerhk, Northwest Syria, DocumentaPraehistorica, XXXVIII, ,P.40.
12. Tsuneki, 2010. A newly Discovered Neolithic Cemetery at Tell el-Kerkh, ,Bulletin of the Ancient Orient Museum, Vol 20, P31.
13. Verhoeven, M, and Peter Kranendonk" 1996. Tell SabiAbyad the Late Neolithic Settlement،'the Excavation: Stratigraphy and Architecture, I, , p; 117.